اصلاح الخط العربي

للدكتور مهدي علام اوى

عميد دار المعلمين العالية ببغداد

— ١ —

١ — تمهيد : ضرورة التيسير في اللغة

تيسير اللغة العربية أمرٌ تحتمه نهضة العرب الحديثة . فإن النهضات القومية لا تقوم في هذا العصر على أكتاف فئة قليلة من الناس تتزعمها فحسب ، بل على سواعد كافة أبناء الشعب . ولا تكون النهضة قوية الأركان الا إذا كان يدعمها منهاج واسع لتثقيف الجمهور، وخلق وعي فكري وخلقي وسياسي واجتماعي فيه . ولما كانت اللغة تلعب دوراً هاماً في هذا المنهاج التثقيفي ، وجب لذلك تطويرها وتيسيرها لتصبح ملكاً مشاعاً لسواد الشعب العربي يتسيغها ويستسهل تعلمها .

ولقد سبق للغة العربية أن تطورت في جميع نواحيها أيام النهضة العربية الأولى بمجيء الاسلام وما عقبه من فتوحات العرب العظيمة واحتكاكهم بمختلف الأمم والشعوب . وكان ذلك التطور محتوماً بمقتضى الحياة الجديدة التي بدأ العرب يحيونها ، ولولاه لما اتسعت اللغة العربية لضروب العلوم والفنون والفلسفة ولمقتضيات التجارة وسائر أساليب العيش ، بل لوقفت حجر عثرة أمام كل تقدم . ونحن اليوم في وضع يماثل وضع أمتنا الأول . نحن على أبواب حياة جديدة ونظام في العيش جديد ، تقتبس الأفكار والعلوم الحديثة وتتطور عقليتنا تطوراً جديداً نتيجة لاحتكاكنا بالأمم الأخرى ونتيجة لنزعتنا الجديدة الى الحياة الحرة المستقلة . ولم يعد من الكافي في عصرنا الحاضر أن يقتصر شعور النهضة والتثقيف على طبقة خاصة كما كان الأمر في العصور السالفة . فما من أمة تستطيع حفظ كيانها في هذا الزمن وسواد شعبها جاهل . فاذا كان الأمر كذلك ، وجب علينا أن ندخل على لغتنا

من التيسير ما يسهل اقتباسها وتعلمها على كافة أفراد الشعب العربي ، وذلك بتخليصها مما في خطها واملائها من الصعوبات ، ومما أدخله على صرفها ونحوها متعمقو النحاة في القرون الوسطى من التعقيدات . كما ان علينا ان نجعل أدبنا سهلاً قريب المنال من عامة الشعب بتخليصه من معقد التراكيب وغريب المفردات ، وأن نكوّن أدباً للاطفال يستهويهم ويحبب اليهم آدابهم ولغة آبائهم . وما القصد من ذلك سوى تسهيل طريق النهضة القومية وتيسير انتشار اللغة القومية وآدابها بين أبنائها ، فبدل أن تكون لغة يستصعبها حتى الخاصة ، تصبح لغة سهلة المنال على العرب اجمعين . وهذا وحده أعظم سبيل لتعزيز اللغة العربية واعلاء شأنها وضمان اطراد تقدمها . فطريق النهضة اذاً هو طريق التيسير والتبسيط واطراح الحشو والتعقيد .

وليست هذه الشكلة مشكلة لغوية أدبية فحسب ، بل هي مشكلة تربوية عظيمة . فالمربون والمعلمون هم الوكلون بتعليم اللغة العربية وهجائها وآدابها لابناء الأمة ، وما يلاقونه من صعوبة في تعليمها واضح لدى كل ذي عناية بهذا الموضوع . وقد نعى على المعلمين والمربين بحق أساليبهم العقيمة في التعليم ونعزو إلى هذا العقم سوء تعليم اللغة ، ولكننا يجب أن نكون منصفين فنسمع من المعلمين والمربين شيئاً عن المصاعب التي يلاقونها في تدريسهم مما يرجع الى طبيعة اللغة وكتابتها وشيئاً عن آرائهم في كيفية تلافي ذلك .

٢ — اصلاح الخط العربي

على اننا في هذا المقال نود أن نحصر بحثنا في اصلاح الخط العربي ، تاركين البحث في تيسير الصرف والنحو وأساليب الكتابة والتعبير ، على كثرة ما يمكن أن يقال فيها . ولا بدّ لنا من القول منذ البدء اننا لسنا من دعاة الانقلاب في تعديل الخط العربي . بل عقيدتنا هي ان ضرر الانقلاب في مثل هذه الامور أكثر من نفعه . ولعلّ دعاة الانقلاب في تعديل الخط العربي مسئولون بعض المسئولية عن المقاومة التي تلقاها الدعوة إلى هذا التعديل ، وذلك لرد الفعل الذي يخلقونه بما يقدمون من الاقتراحات المتطرفة .

ونود أن نقرّر هنا ان تعديل الخط يجب أن يكون مستمدًّا من طبيعة خطنا ، يعدّله ويبسطه في التفاصيل . ولكنه يحتفظ بأساسه وجوهره . وكل اصلاح يتعدى هذه الحدود هو غير عملي التطبيق ، لا لما يلقاه من المقاومة فحسب ، بل للضرر الذي قد يدخله على اللغة ، فلا بدّ لنا من التسليم بأن الحروف العربية مزيتين عظيمتين تحمدنا عليهما سائر اللغات ،

المزية الأولى هي أنها مبنية على أساس صوتي صحيح يطابق فيه اللفظ الصوت إلى أبعد حد، وهذا ما لا يتوفر في معظم اللغات الأوربية الحديثة. والمزية الثانية هي ان الحروف العربية أشبه بالاختزال، لأن طريقة الكتابة فيها تعتمد على اهمال الحركات في معظم الأحيان، والاقتصار على الحروف الصحيحة التي تكوّن لباب الكلمات. نقول ذلك ونحن نعلم أن من الباحثين من ينعى على اللغة العربية نفس هذه المزية. وسنبين وجه الخطر في هذه النظرية فيما بعد، على اننا نعتقد أن كل اصلاح للخط العربي يجب أن يأخذ هاتين المزيتين بعين الاعتبار فلا يعمل على هدمهما.

***

ومن هنا يظهر خطل الفكرتين القائلتين بالأخذ بالحروف اللاتينية، وكتابة الحركات بطريقة الحروف. أما مشكلة الحركات فسنعود إليها فيما بعد. وإنما نود أن نحلل هنا الفكرة القائلة باقتباس الحروف اللاتينية لكتابة اللغة العربية، على غرار ما فعلته تركيا وليس غرضنا من ذلك إن ندحض هذا الرأي فحسب، فقد لا يحتاج ذلك إلى كثير عناء، ولكن لتوضيح مزايا الخط العربي، ولنبين كيف أن بضعة تعديلات بسيطة في خطنا لا تمس جوهره، كافية لجعله أحسن خط ممكن لكتابة اللغة العربية في العصر الحاضر، ومن أسهل خطوط العالم

٣ — الموازنة بين الخط العربي والخط اللاتيني

إن أهم ما يستند إليه دعاة الأخذ بالخط اللاتيني نقطتان — هذا اذا استثنينا مشكلة الحركات التي سنعود إليها:

أما النقطة الأولى فهي أن الخط اللاتيني أبسط من العربي، لأن للحرف فيه شكلاً واحداً لا يتبدل، ولأن الحرف منفصل دائماً بحيث يمكن للقارىء أن يحلل الكلمات إلى حروفها ويؤلف من الحروف كلمات بكل سهولة، على عكس الخط العربي الذي تتصل حروفه بعضها ببعض في الكلمات، وتتبدل أشكالها بحسب مواقعها. وأما النقطة الثانية فهي إنهم يشيرون إلى نجاح تركيا في اقتباسها الخط اللاتيني ومساعدة ذلك لها على نشر التعليم فيها بسرعة.

أما النقطة الأولى وهي بساطة الخط اللاتيني وعدم تبدل أشكاله، فلا أساس لها بل هي في الغالب إدعاء ناتج عن قلة تدقيق في الخط اللاتيني. فالواقع أن الخط اللاتيني ليس خطاً واحداً، بل خطين، أحدهما يستعمل في الطباعة. وثانيهما خط يدوي يستعمل للكتابة الاعتيادية،

ومع أن بعض الحروف بين هذين الخطين واحدة أو تتشابه تشابهاً يختلف في قربه أو بعده، إلا أن جانباً غير قليل من حروف الطبع يختلف في شكله عن حروف الكتابة. أضف إلى

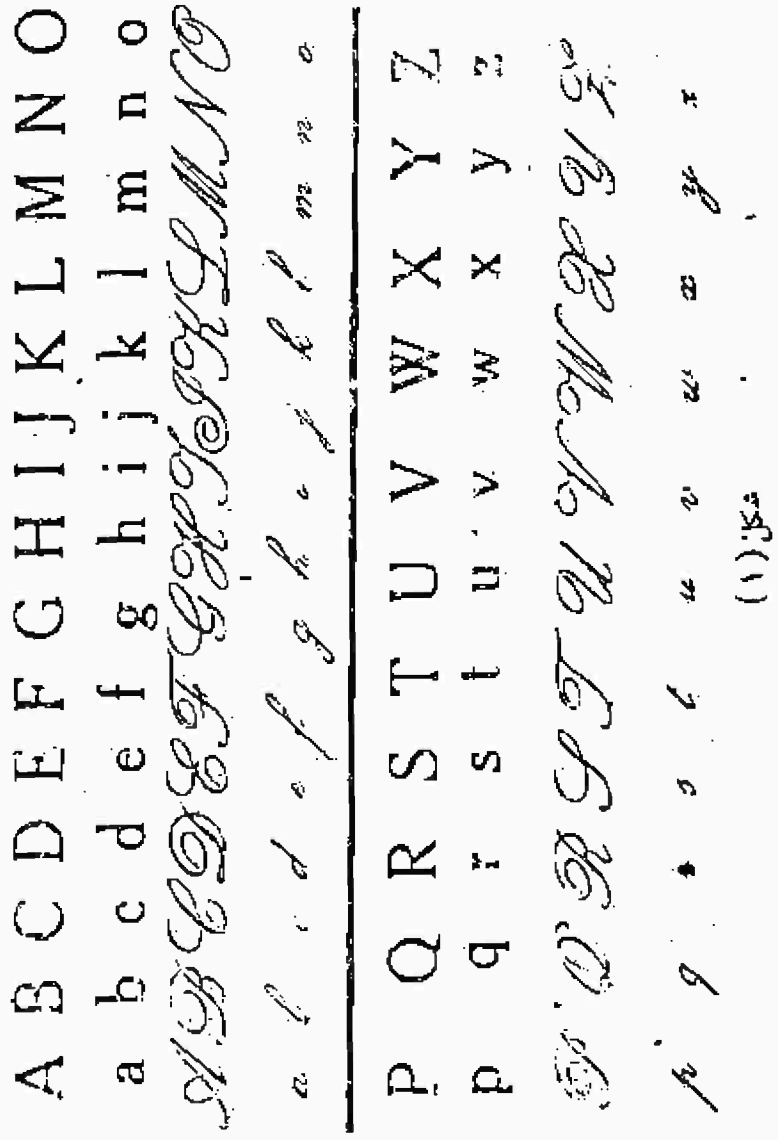

شكل (١)

ذلك أن حروف الخط البدوي تتصل بعضها ببعض كما تتصل حروف الخط العربي. ثم إن كل

واحد من هذين الحرفين لشكلان ، الشكل الكبير وهو مايعرف بالانكليزية بـ Capital letter وبالافرنسية بـ Majuscule والشكل الصغير أي Small letter أو Minuscule. وهكذا يصبح للكثير من الحروف اللاتينية أربعة أشكال بدلاً من شكل واحد كما يزعمون . ونظرة واحدة إلى جدول الحروف اللاتينية تكفي لايضاح هذه النقطة وبيان الفروق بين الحروف . (الرسم ١) أما الخط الالماني فهو على ثلاثة أنواع لاتيني وقوطي Gothic ويدوي . ولكل من هذه الأنواع شكلان كبير وصغير بحيث يصبح مجموع أشكال بعض هذه الحروف ستة ، لا شكلاً واحداً . أما الخط العربي وإن كان شكل الحرف فيه يتبدل بحسب موقعه في الكلمة، الاّ أنهُ هو هو في خطي الطباعة والكتابة لا تبديل فيه الاّ ما يندر .

وهنالك من يعيب على الخط العربي تقارب كثير من أشكال حروفه كالباء والتاء والثاء والنون، وكالجيم والحاء والخاء وغير ذلك . فانها لا تختلف احداها عن الأخرى إلاّ في وجود النقط أو فقدانها وفي عدد هذه النقط إذا وجدت . على أن شيئاً من هذا التشابه في اشكال الحروف موجود ايضاً في الحرف اللاتيني . فهنالك في الحرف المطبوع التشابه بين الـ p والـ d فانهما لا تختلفان الاّ بقلب أسفلهما ، وتشابه بين الـ b والـ h وبين الـ b والـ q . وفي الخط اليدوي نجد تشابهاً كبيراً بين الـ b والـ u والـ p والـ i وتشابهاً كثيراً ما يدعو إلى الابهام بين الـ a والـ o وبين الـ n والـ u .

***

ولقد أسهبنا في هذه النقطة ، لا لكي ننقد الخط اللاتيني، بل لنبين أن بعض الصفات المنتقدة في الخط العربي موجودة في الخط اللاتيني أيضاً ، وان كان وجودها ليس بمقدار ما هي عليه في الخط العربي ، وان التبديل الى الخط اللاتيني، لن ينجينا منها بتاتاً.

على أن قراءة أية لغة وكتابتها لاتتوقفان على مجرد معرفة أصواتها وحروفها، بل تعتمدان إلى حدّ بعيد على كيفية اجتماع هذه الأصوات والحروف في كلمات، وما يطرأ عليها من التبدل في اللفظ باجتماعها هذا . ومن هذه الناحية تفضل اللغة العربية معظم اللغات الأوربية بمراحل ، وعلى الأخص اللغة الانكليزية ، وبدرجة ثانية اللغة الافرنسية . فالحرف في اللغة العربية هو هو، له الصوت نفسه، دون تبديل أينما حل من الكلمة في أولها أو وسطها أو آخرها، ومهما كان نوع الحرف الآخر الذي يجتمع به . أي أن الخط العربي موضوع على أساس صوتي فونيتي تطابق فيه الحروف الأصوات مطابقة تكاد تكون كلية . ولا يخرج عن هذه

المطابقة الا حالات معدودة ككتابة الهمزة ، وكالفرق بين التاء المربوطة والتاء الطويلة وكالتمييز بين الالف المقصورة والطويلة ، وبين الظاء والضاد عند أهل العراق والجزيرة لا عند أهل الشام ومصر .

وإذا استثنينا هذه الحالات الشاذة وغيرها قليل ، كانت الكتابة العربية صوتية لا غبار عليها في تركيبها ، وهذا عامل تسهيل عظيم في الكتابة العربية واملائها .

وليس الأمر كذلك في اللغات الأوربية التي تستعمل الخط اللاتيني — على كل حال في تلك اللغات التي لي شيء من الاطلاع فيها وهي الانكليزية والفرنسية والالمانية . فان تركيبها الصوتي تشوبه كثير من الشوائب . ولعل الالمانية أحسن اللغات الثلاثة من هذه الوجهة والانكليزية أبعدها عن المنطق والنظام والفرنسية واقعة في محل وسط بين الاثنتين . وها نحن آتون ببعض الأمثلة في اللغة الانكليزية لأوضح الفرق العظيم بين بعض اللغات الأوربية واللغة العربية في هذا الشأن .

***

خذ مثلاً حرف الـ u في الكلمات الثانية : Cure, Cup, Superior, Burst فهو يقرأ (يو) في الأولى و (أ) مفخمة في الثانية و (أو) في الثالثة و (e) الفرنسية في الرابعة . أي ان هذا الحرف يلفظ بأشكال أربعة يختلف أحدها عن الآخر اختلافاً بيناً . أو خذ الحروف ough في الكلمات Through, Borough, Rough فهي تلفظ (أو) في الأولى و (ر) في الثانية و (ف) في الثالثة . وعلى ذكر صوت الفاء فهناك ثلاث طرق لتدوينه في اللغة الانكليزية تتجلى في الكلمات Form, Philosophy, Rough . والحرف الثاء أيضاً أربعة أصوات تظهر في الكلمات Turn, Action, Nature, Bottle . أما الحروف التي تكتب ولا تلفظ فحدث عنها ولا حرج . ومثل هذا الشذوذ عن الأصول الصوتية كثير تجده في اللغة الانكليزية أينما تلفتَّ ؟ بل هو القاعدة ، والانتظام الصوتي للكلمات والحروف هو الشاذ ، حتى اشتهرت اللغة الانكليزية بذلك ، وحتى أصبح تعلم الاملاء والهجاء الانكليزيين من الأمور العجيبة . وعلى الطالب المتكلم باللغة الانكليزية أن يتخبط في هذه التاهة سنوات ليتمكن من تعلم املاء كلمات لغته ولفظها . وأصبح الاملاء الانكليزي من المواضيع المهمة التي تدرس في المدارس مع ان الاملاء العربي عندنا يعتبر في التدريس أمراً ثانوياً . وهذا الخلل الصوتي في الانكليزية موجود بدرجة أقل في اللغة الافرنسية ، ولكن وجوده لا يستهان به ولولا خشية الاطالة لجئنا بأمثلة عليه .

٤ — الفرق في النشأة بين الخط العربي والخط اللاتيني

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن العلة في أن الحروف العربية صوتية في الغالب وعن تطرق الخلل من الوجهة الصوتية في كتابة اللغات الاوربية . ولكي نجيب عن هذا السؤال علينا أن نرجع إلى تاريخ نشوء الخط . ولعلّ الجواب الذي نتوصل اليه يعطينا فكرة أساسية عن طبيعة الخط العربي تفيدنا في معالجتنا المشكلة التي نحن بصددها .

كان الفينيقيون أول من وضع حروف الهجاء ونشرها في أنحاء العالم المتمدن المعروف إذ ذاك . ويظهر انهم اقتبسوها عن الكتابة المصرية ، إلاّ أنهم وضعوها على أساس صوتي ، بأن جعلوا لكل صوت حرفاً خاصاً به . والفينيقيون قوم من الساميين كانوا أكبر تجار عصرهم ، يتنقلون ببضائع بين الشرق والغرب ، وكانوا يحتاجون إلى طريقة سهلة مختصرة للسجل معاملاتهم التجارية فاخترعوا حروف الهجاء لهذا الغرض . وأخذ الآراميون الكتابة عن الفينيقيين ، وأخذ النبطيون وهم قوم من العرب كانوا نازلين في وادي موسى والبطراء ، بين التاريخين الميلادي والهجري ، الكتابة عن الآراميين . وتدل البحوث التي قام بها العلماء عن الخط العربي ومقارنة الخطوط العربية القديمة بالخط النبطي ، ان الخط العربي الشائع اليوم أخذ من الخط النبطي ونما وتطوّر ، حتى أصبح بالصورة التي نعرفها اليوم .

ان اللغات الفينيقية والآرمية والنبطية والعربية لغات سامية قريبة احداها من الاخرى وترجع إلى أصل واحد . وان شئت فقل انها لهجات من لغة واحدة تختلف في بعدها عن الأصل ، منها القريبة ومنها البعيدة . يدلك على ذلك ان الافعال الأساسية فيها ثلاثية كما في اللغة العربية ، تشتق منها بقية الصيغ ، وان جانباً كبيراً من مفرداتها مشترك مع تحريف بسيط ، وان معظم أصواتها مشترك أيضاً . فلما وضع الفينيقيون الالفباء ، جاءت حروفهم صوتية منطبقة على لغتهم اشد الانطباق . ولما كانت اللغات السامية الاخرى التي اقتبست خطها منهم قريبة من الفينيقية ، لم تجد في هذا الاقتباس كبير عناء ، ولم تجد ضرورة الى إجراء كثير من التبديل والحذف او الاضافة أو تركيب حرفين أو أكثر للدلالة على صوت واحد ، كما نراه في اللغات الاوربية . بل اننا نجد ان أحرف «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت» هي هي في الآرمية وفي العربية ، وقد زادت العربية عليها أحرف « ثخذ ، ضظغ » . ونجد أن كل اللغات السامية التي تكتب بالحروف الأبجدية تشترك في صفة واحدة ، هي اهمال الحركات وكتابة الاحرف الصحيحة فقط مع حروف المد كما نفعل نحن في اللغة العربية . وصفوة القول ، إن الخط الهجائي نشأ على أساس لغة سامية ، وانتشر منها إلى قريباتها ، وتطوّر

تقتضي تطوّر هذه اللغات حتى وجد الخط العربي وهو من أحدث الخطوط في اللغات السامية ، إن لم يكن أحدثها . فالخط عندنا اذاً مستمد من طبيعة اللغة ، متصل بها اتصالاً وثيقاً ، مطابق لها مطابقة صوتية كبيرة بحكم نشأته التاريخية . وهذه حقيقة لا ينتبه اليها دعاة الأخذ بالخط اللاتيني .

وليس هذا حظ الخطوط اللاتينية . فان الفينيقيين في أسفارهم في البحر المتوسط أعطوا خطهم الى اليونان ، وهؤلاء أعطوه الى الرومان اللاتينيين ، ومن الخط اللاتيني استمدت الأمم الأوربية الحديثة حروف هجائها . على أن اللغات الأوربية ليست سامية بل هي طائفة من اللغات قائمة بذاتها ، تختلف اختلافاً عظيماً في مفرداتها وتراكيبها وأصولها اللغوية عن اللغات السامية ، كما تختلف عنها أيضاً في عدد غير قليل من أصواتها . ففي اللغات السامية أصوات غير موجودة في اللغات الأوربية . وفي هذه أصوات تزيد على أصوات اللغات السامية ، ولم يكن الفينيقيون بالطبع قد وضعوا لها رموزاً وحروفاً ، فاضطر الأوربيون إذاً ، إمّا أن يضعوا لها حروفاً جديدة ، أو أن يعطوا للحرف الواحد أكثر من صوت واحد ، أو أن يؤلفوا حرفين وثلاثة للرمز عن صوت واحد ، كما تفعل الانكليزية للرمز عن (چ — ch) و (ش — sh) و (ث و ذ — th) وهذان الحرفان الأخيران ، يرمزان كما ترى إلى صوتين ، هما الثاء والذال .

هذا على ما نرى هو السبب الأساسي الأصيل في تطرق الخلل من الناحية الصوتية الى بعض خطوط اللغات الأوربية . فاذا كانت الحروف العربية وحروف اللغات السامية ، منطبقة على لغاتها وأصواتها أشد الانطباق ، لأنها نشأت ونمت مع هذه اللغات وهي مستمدة من طبيعتها ملازمة لها ، فان اختلال الخطوط الأوربية ، وبالأخص الحديثة منها بعض الاختلال ، يعود الى أن الخط الهجائي ليس أصيلاً فيها ، بل هو دخيل عليها ، نشأ في لغة أجنبية بعيدة عنها . والفرق بين الخط العربي والخطوط الهجائية السامية من جهة ، وبين الخطوط الأوربية من الجهة الأخرى ، هو كالفرق بين الأصيل والتقليد . وإذا كانت الخطوط الأوربية بعد تطور ما يزيد على الألفي سنة ، أصبحت تسد حاجات اللغات الأوربية ، فليس ذلك دليلاً على إنها صالحة للغتنا . ومن صعب عليه تصديق ذلك ، فلينظر الى محاولات المستشرقين كتابة الكلمات العربية بحروف أوربية ، وليشاهد مقدار النقط والخطوط والعلامات التي يضطرون الى اضافتها للرمز إلى الكلمات العربية ، وليرى كيف أن الكلمة التي تكتب عندنا بثلاثة حروف ، تكتب عندهم بخمسة أو ستة ، وكيف انه تصعب عليه قراءتها ، مهما كان بارعاً في قراءة الرموز اللاتينية .

قيود

قضى زماني عليَّ أني أمشي ورجلاي في القيودْ
حال بها في خطاي بغشي ذل الأسير الخطى المقودْ
ويلاه مما لقيت منها ويلاه للسيِّد المسودْ
إبليس لو ذاقها قديمًا لما عصى الأمر بالسجودْ

* * *

ظلمٌ، ولكن أنَّى قضاني! أو أين لي فيه بالشهودْ؟
من مثله لم يزل لعيسى دم على مذبح اليهودْ
يا رب فيم الوجود إذ لم تمنحه حرية الوجودْ؟
وأينما صالح يولِّي وجهًا، فلا بُدَّ من ثمودْ

* * *

يا زمني فيك وجه عادٍ فهل ترى فيَّ وجه هودْ
أبشر وثق بي فلا نبيٌّ يبعثه الله للقرودْ

محمود أبو الرفا